مجلة المدائن

العدد : ١٨٦ الموافق في شـــعبان ١٤١٧ هجري ١ / ١٩٩٧ ميلادي

عنوان المقال : لماذا يهتم جيلنا بالسيرة النبوية ؟	بقلم : صلاح الدين بن إبراهيم

أولاً : أهمية السيرة النبوية : وأتناول هذا الموضوع على النحو الآتي :

♦ **ما الفرق بين السنة والسيرة ؟**

I- **السنة :** عند الأصوليين : قول أو فعل أو تقرير صدر عن المصطفى ﷺ ويقتضي الاتباع على الإلزام أو على الندب فعلاً كان أم تركاً.

II-**السيرة :** باتت تعني بالدرجة الأولى : الطريقة التي تعامل بها النبي ﷺ مع الناس ، وخاصة المعاندين والمناوئين والمقاتلين ، في مرحلة الدعوة وفي مرحلة الدولة.

هذا ، ولا ريب في أن مصطلح « السيرة » قد تطور من جيل إلى جيل ، واستقر - كما يلوح لي - على الاهتمام بالجانب التاريخي من حياة رسول الله ﷺ ، ولذلك أورد السيرة بهذا المعنى كُتّاب التاريخ ، فلو نظرنا - على سبيل المثال - إلى ابن كثير في « البداية والنهاية » فإننا نرى السيرة عنده تبدأ بنسبه الشريف ﷺ ، ثم يأتي خبر النشأة ، فالبعثة ، فالتبليغ والصبر ، فالهجرة. ثم يأتي موضوع « المغازي » أي الغزوات ، وهي التي قال عنها زين العابدين علي بن الحسين بن علي : « كنا نُعلَّم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن » [البداية والنهاية ٢٤٢/٣] ، وخلال ذلك يذكر علاقته ﷺ بيهود المدينة ومنافقيها ، ويذكر بعض الحوادث الهامة كحديث الإفك ومراسلته الملوك والأمراء... إلى أن يختم ذلك كله بوفاته ﷺ . وقد سار على هذا النسق معظم الذين كتبوا في السيرة عبر القرون.

بقي أن أشير إلى أن الجانب التاريخي من حياته ﷺ ليس منفصلاً بالكلية عن الجانب التشريعي - بالمعنى الاصطلاحي - بل إننا نجد عالماً محققاً مثل ابن القيم يدخل الجانب التاريخي في معنى السنة ويجمعه مع « الشمائل » والجانب التشريعي في كتابه « زاد المعاد في هدي خير العباد ». فالتفريق بين السنة والسيرة مع أن كلاً منهما يعني « الطريقة » لغة ، وما أُثِرَ عن النبي ﷺ اصطلاحاً ؛ أقول : إن التفريق كان بسبب الظروف التاريخية ، فبعد استقرار الدولة الإسلامية اتجهت الأنظار إلى الاهتمام بالسنة الآمرة والناهية سواء كان الأمر للفرض أو الندب ، أم كان النهي للتحريم أو الكراهة.

♦ **ماذا نستنتج من التفريق بين السنة وبين السيرة ؟** باختصار :

١- **السنة :** مصدر تشريع وبيان للأحكام العملية (حلال ، حرام ، واجب ، مندوب ، مكروه). لذلك تشدد العلماء في قبولها.

٢- **السيرة :** ليست مصدر تشريع بالمعنى الذي اكتسبته « السنة » كاصطلاح ، ولذلك تساهل العلماء في رواية قصصها في العصور السالفة.

❋ ❋ ❋

ثانياً : لماذا اكتسبت السيرة أهمية في عصرنا ؟

احتلت السيرة مكانة خاصة في عصرنا بسبب :

- صراع أمتنا مع قوى الشر العالمية ، وهو صراع ثقافي حضاري يتخذ من القوة العسكرية والقوة الاقتصادية ، والتضليل الثقافي...الخ ، وسائلَ مواجهة وإخضاع وعبث بقيم الإسلام... قيم الحياة.
- التنازع داخل الأرض الإسلامية بين أصحاب الفكر الأصيل « الإسلام » ، وبين أصحاب الفكر الدخيل... وفيهم أصحاب السلطان !.

في هذا الجو المشحون بألوان الصراعات... وجد دعاة الإسلام أنفسهم أمام واجب تغيير الأمة ، وهو يختلف عن واجب الإصلاح الجزئي والترقيع الموضعي...

وبما أن السيرة تزودنا بطريقة التعامل مع الوسط المحيط... وتضع لنا ضوابط ، إن التزمناها سلمنا من الانحراف ، فإن دعاة الإسلام وجدوا أن السيرة منهل صاف ، فانكبوا على دراستها... ورأوا أنها تمثل الجانب الحركي في الدعوة الربانية. وأضرب أمثلة :

١- إن جو الصراع الداخلي مع الأنظمة ، وشروطه ووسائله ، ووضع الأمة ومؤسساتها الأساسية... فرض ذلك كله على دعاة الإسلام البحث عن طريقة شرعية للرد على التحديات ومواجهة أطراف الصراع... فكان السؤال :

* هل نحن في مرحلة مكية... نُستضعف فنصبر ونتابع الطريق إلى أن يأذن الله بتغيير الأوضاع ؟.

* أم أننا في عهد مدني... الصبر المكي فيه ذلٌ لا يقبل... ولا بد من حمل السلاح في

مواجهة الخصوم ؟

* وهل « الجهاد » بمعنى « القتال » يخضع لـ « مرحلية الأحكام » أم لا ؟.

٢- هل التنظيم الجماعي بهدف إقامة دولة إسلامية جائز ، أم واجب ، أم حرام ؟ وهل السرية مشروعة أو ممنوعة ؟

٣- هل التعامل مع الحكام « العلمانيين » جائز... أم أنه مرفوض لأنه يقتضي « المداهنة » ولا بد حيالهم من « **لكم دينكم ولي دين** » ؟.

من هذه الإشارات الدالة على الاهتمام الكبير الذي باتت تحتله سيرة النبي ﷺ ، يتبين لنا أن هناك شعوراً عميقاً لدى دعاة الإسلام **مفاده أن الله تعالى أرسل رسوله ﷺ بالرسالة ، المحفوظة في القرآن والسنة ، وبطريقة العمل لهذه الرسالة ، وهي المسطورة في سيرة النبي ﷺ العطرة الزكية.**

ومن هنا فإن للسيرة - في عصرنا - دوراً منهجياً ، وهذا يدفعنا إلى التنبيه إلى أمرين :

الأول : ضرورة التثبت من وقائع السيرة ، إذ لم يعد مقبولاً التساهل في رواية قصصها ، نظراً للتفاعل الكبير مع سيرة الرسول ﷺ في ظروف واقع أمتنا الرهيب.

الثاني : عدم الاكتفاء بكتب السيرة في معرفة « منهج العمل » إذ لا بد من الرجوع إلى القرآن والسنة للتعرف على الضوابط المناسبة للعمل الحركي في ظروف عالمنا وعصرنا.

❋ ❋ ❋

ثالثاً – مصادر السيرة :

١- **القرآن الكريم :** فقد وردت فيه آيات تتحدث عن الدعوة في بطن مكة ، وعن التكذيب والإيذاء والاستهزاء ، وعن محاولات التطويق والاحتواء ، وعن الهجرة ومقدماتها ، أما الغزوات فقد ورد ذكر عدد منها : (بدر ، أحد ، الأحزاب ، الفتح ، حنين ، العسرة...) وفي القرآن بيان شاف لمقام الرسول البشر... الخ. وهنا أشير إلى كتاب « سيرة الرسول ﷺ : صور مقتبسة من القرآن الكريم » لمحمد عزة دروزة وأنصح باقتنائه.

٢- **كتب السنة :** وهذه تضم في ثناياها طائفة كبيرة من النصوص التي تتحدث عن سيرته ﷺ مع

المؤمنين ومع الكفار ، ومع اليهود والمنافقين...الخ ، مما لا تذكره كتب السيرة التقليدية. وهنا لا بد من التنويه إلى ضرورة التثبت من صحة النص.

٣- **كتب التاريخ العام :** كالبداية والنهاية لابن كثير ، ولعل من نافلة القول أن نُذكر بأن ما ورد في كتب التاريخ ينبغي أن يخضع لقواعد القبول التي نص عليها علماء الأمة المحققون ، فورود النص في كتب التاريخ لا يعني أنه صحيح.

كتب السيرة : مثل « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » للقاضي عياض بن موسى الأندلسي (٤٧٦ - ٥٥٤هـ) ، وفي هذه الكتب أحاديث ضعيفة وموضوعة ، وقد سلك مؤلفوها في الجمع ما كان متعارفاً عليه في التأليف ، إذ يوردون كل ما وصل إلى علمهم ، مع حرصهم على ذكر السند ، وكانوا يرون أن من ذكر السند فقد خرج من العهدة ، أي المسؤولية. فمثل هذه الكتب تفرض على أبناء عصرنا البحث عن صحة كل واقعة قبل الاعتماد عليها وذكرها ، إذ لا يصح أن يبنى رأي أو موقف أو توجيه على حادثة غير صحيحة ، ورحم الله علماءنا الذين كانوا عاملين بالمثل السائر « **أثبتِ العرش ثم انقشْ** ».